سكان مصر

ودراسة تاريخهم الجنسى

١ — تمهيد عام : دراسة سكان مصر
٢ — منهج البحث الانثروبولوجى وفكرة الجنس
٣ — العوامل الجغرافية وأثرها فى تعمير مصر وفى تكوين سكانها الجنسى
٤ — سكان مصر وتطورهم الجنسى على مر العصور
٥ — خلاصة عن سكان مصر ومميزاتهم الجنسية العامة
٦ — ملاحظات ختامية ومقترحات بشأن الدراسة الانثروبولوجية لسكان مصر
٧ — ثبت ببعض المراجع

تمهيد عام : دراسة سكان مصر :

قال هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد ان مصر هبة النيل • وتناقل الكتاب عنه هذا القول جيلا بعد جيل ؛ وفهم عنه كثير من المعنيين بالدراسات المصرية أن مصر ببيئتها الطبيعية وحضارتها التاريخية انما جاءت كلها هبة من هبات هذا النهر العظيم • ومع ذلك فنحن اذا أنعمنا النظر فى تاريخ الحضارة وجدنا أن النيل لم يكن المقوم الوحيد من مقومات الحياة والمدنية فى مصر • فهنالك عناصر أخرى فى البيئة المصرية الطبيعية غير ماء النهر ؛ منها المناخ وما كان له من أثر فى الأعصر القديمة

وفى الوقت الحاضر ؛ ومنها الصحارى المصرية الواقعة على جانبى الوادى تقيه كأنها الدروع ، وتمكن له من الاحتفاظ بشخصيته المميزة عن العالم الخارجى ؛ ثم منها الموقع الجغرافى لمصر وما كان له من أثر متغير من عصر لعصر بحسب اتصالات مصر بما جاورها من جهة ، ومقتضيات الاتصال بين الشرق والغرب عن طريق هذا المركز الهام فى قلب العالم القديم من جهة أخرى . وفوق ذلك فان الظروف الطبيعية لم تعمل بمفردها فى نشأة الحياة والمدنية فى مصر . فالطبيعة وحدها لا تنشىء مدنية ، والنيل ذاته اذا ترك وشأنه يجرى جريانا طبيعيا دون ضبط أو تقويم ، ودون أن ينظم طوفانه على السهل الفيضى ، فانه يكون مصدر خطر على الحياة المستقرة على جوانبه أكثر مما هو مصدر خير ، لأن تياره يجرف التربة من جانب الى آخر ، وينحر الجسور بغير نظام . والحق أن الحياة الزراعية التى قامت على أساسها المدنية المصرية انما جاءت نتيجة لتفاعل جهود الانسان وعوامل البيئة الطبيعية ، بحيث ان التربة المصرية ان كانت هبة من هبات النيل ، فان الحياة والحضارة المصرية بشكلهما التاريخى المعروف انما هما من ثمرات جهود الانسان فى بيئة طبيعية صالحة . ولئن صح هذا الفهم للمدنية المصرية فان تعريف هيرودوت يحتاج الى شىء من التفسير والتعديل ؛ ولابد لنا اذ نتحدث عن مقومات الحياة والمدنية فى مصر من أن نجمع بين البيئة والانسان ، أو بين ما اصطلح الجغرافيون والمعنيون بالدراسات الاجتماعية على أن يسموه « المكان » من جهة ، « والسكان » من جهة أخرى .

ومع ذلك فالشىء الملحوظ فى الدراسات المصرية أن معظم الاهتمام حتى الآن قد اتجه نحو البيئة أو «المكان» أكثر مما اتجه نحو «السكان» . فنحن نعرف عن ماء نهر النيل وتربة واديه الأدنى ، وكذلك عن صحارى مصر المجاورة وعن مناخها وموقعها الجغرافى ، أكثر مما نعرف عن سكان هذا الوادى وتاريخ تكوينهم الجنسى ومميزات سلالاتهم فى الوقت

الحاضر . بل ان مانعرف عن هذه النـــواحى الأخيرة قد لايكفى لأن نخرج منه بصورة صحيحة عن المصريين وتكوينهم الجنسى ، بالمعنى الذى يفهمه الانثروبولوجيون ، والذى يستند الى الدراسة العلمية الدقيقة والبيانات والمقاييس الانثروبومترية المفصلة ، والتى لا يجاوز ما لدينـــا منها عن المصريين الحاليين أكثر مما يمثل بضعة آلاف قليلة من الأفراد الذين تمت دراستهم فى أجزاء مختلفة من مصر ؛ وهو رقم صغير لا يمكن أن نخرج منه بصورة دقيقـــة عن سكان مصر وتاريخهم الانثروبولوجى وتكوينهم الجنسى ؛ فضلا عن أن تلك الابحاث قـــد اختلفت فى طرائقها ووسائلها من باحث الى آخر مما يصعب الجمع والمقارنة . ولذلك كله فان مثل بحثنا الحاضر لن يعدو أن يكون استعراضا لبعض ما تم من دراسات فى مختلف النواحى التى تلقى ضـــوءا على تاريخ شعب مصر وتكوينه الجنسى ، وما اعترى ذلك من اختـــلاط فى فترات متلاحقة من أعصر تاريخنـــا الطويل . وسنعمد — استكمالا لمـــا هنـــاك من نقص فى الدراسات الانثروبولوجية — الى الجمع بين ما لدينا من بيانات وحقائق نعرفها من مختلف ميادين البحث ؛ سواء فى ذلك مايتصل بأصل السكان وحضارتهم ، وتاريخ استقرارهم فى الوادى ، واتصالهم بالعالم الخارجى ، واختلاطهم بالوافدين والعابرين ؛ أو بما نعرف عن سلالاتهم السابقة من دراسة الهياكل والبقايا العظمية للسكان الغابرين فى عصر ما قبل التاريخ وخلال الأعصر التاريخية ؛ أو ما هو معروف من تكوين السكان فى الوقت الحاضر فى ضوء بعض الدراسات الأنثروبومترية والجنسية الحديثة . ولذلك فان هذا البحث لن يكون انثروبولوجيا خالصا ؛ فنحن فى مصر لا نزال فى مرحلة لا يمكن أن تكتمل فيها مثل هذه الدراسة الجنسية الخالصة دون الاعتماد على الأدلة الأثرية وغـــيرها ، بل دون الاعتماد على بعض الأدلة العامة التى تساعد على الاستنتاج والاستخلاص ، مما قد يستفاد مثلا من دراسة البيئة المصرية وطرق الهجرات القديمة ، والعوامل الجغرافية

المختلفة التى يصح أن تكون قد سهلت قدوم الوافدين من الخارج أو استقرارهم واختلاطهم بغيرهم فى مختلف جهات وادى النيل الأدنى • وعلى ذلك كله فستكون الغاية من هذا البحث انما هى استقصاء أصل السكان فى مصر ونشأتهم الأولى ، والعوامل الأساسية التى أثرت فى تعمير وادى النيل الأدنى خلال الأعصر المتتابعة ؛ علنا نخرج فى نهاية البحث بما ينير السبيل أمامنا فى رسم خطة ومنهاج عمليين لدراسة سكان مصر ، والبحث عن أمهات المسائل التى قد تهم من يعرضون لدراسة هذا الموضوع •

منهج البحث الانثروبولوجى وفكرة الجنس :

ولكننا قبل أن نطرق موضوع سكان مصر وتكوينهم الجنسى والعوامل التى أثرت فى تعمير الوادى بسلالة أو سلالات خاصة ، يصح أن نشير اشارة عابرة الى منهج البحث الانثروبولوجى ، وما طرأ عليه من تطور فى العهد الأخير • ويفرق الانثروبولوجيون بين ناحيتين من نواحى البحث ، تتصل احداهما بالجانب الطبيعى من تكوين الانسان ، فتدرس الجسم ومقاييسه التى تكشف عن مميزات جسمية أو هيكلية خاصة ، وتعرف هذه الدراسة بالانثروبولوجيا الطبيعية ؛ كما تتصل الأخرى بالجانب البشرى العام والاجتماعى من حياة الانسان ، وتعرف بالانثروبولوجيا الاجتماعية • وبديهى أن مايهمنا الآن انما هو البحث الطبيعى ؛ وهو يعتمد كما أشرنا على مقاييس وملاحظات جسمية أو هيكلية ؛ منها شكل الرأس والوجه ، لاسيما ما يعرف بمقياس الرأس Cephalic Index وهو نسبة العرض الى الطول على اعتبار أن الأخير يساوى مائة[1]؛ ومنها لون الجلد أو البشرة ، ويتوقف على مقدار المادة الملونة (Pigmentation)

(١) يحسب مقياس الرأس أو النسبة الرأسية هكذا : $\frac{\text{عرض الرأس} \times \text{مائة}}{\text{طول الرأس}}$ وهناك مقاييس أخرى للرأس منها ارتفاع الرأس مقدراً من ثقب الأذن إلى أعلا الجمجمة ، وغير ذلك من مقاييس الرأس والوجه •

الموجودة تحت الجلد ؛ ثم نوع الشعر ويتوقف على قطاع الشعرات ، وهو قد يكون مستديرا أو بيضيا أو مضغوطا فيؤثر ذلك فى حالة الشعر من حيث الاستقامة أو التموج أو التجعد أو الالتفاف على بعضه بعضا حتى يشبه حبات الفلفل ؛ ثم منها القامة وطولها أو قصرها ؛ ثم بعض مميزات جسمية أخرى تقاس أو تقدر أو تدون عنها الملاحظات • وعلى الرغم من اختلاف الباحثين فيما يختص بطرائق تسجيل المقاييس والملاحظات ثم دراستها واستخلاص النسب المختلفة منها ، فقد توصل الانثروبولوجيون الى تقسيم سكان العالم الى «أجناس» ميزوا بعضها عن بعض «بمجموعات» من الصفات التى أشرنا اليها ، والتى توجد كل مجموعة منها فى جنس من الأجناس ، ولو أن بعضها قد يكون أظهر من بعض • ومع ذلك فقد أسىء استعمال لفظ « جنس » خلال العقدين أو الثلاثة الأخيرة ، فأصبح لفظا دارجا ليس له من الدلالة الانثروبولوجية الدقيقة ماينبغى أن يكون للمصطلح العلمى ؛ بل كثيرا مايخلط بينه وبين بعض الألفاظ ذات الدلالة غير الدقيقة من الناحية الانثروبولوجية كلفظ « شعب » أو « قوم » أو « أمة » • ولذلك فان الانثروبولوجيين يميلون الآن الى اهمال استعمال لفظ « جنس » أو على الأقل اعادة تحديد مدلوله تحديدا ثابتا • وقد حدث فى المؤتمر الانثروبولوجى الدولى الذى انعقد بمدينة كوبنهاجن فى عام ١٩٣٨ أن تقدم أحد قادة الانثروبولوجيين وهو الأستاذ H. J. Fleure واقترح الاستغناء عن استعمال لفظ «جنس» من حيث أنه يدل على وحدة الأصل والسلالة ووحدة التكوين البيولوجى بين أفراد مجموعة معينة من البشر[1] • وهو يرى فوق ذلك أن الصفات

(١) "The term race implying fundamental genealogical unity and original biological uniformity should no longer be used", see H.J. Fleure, "Are attempts to classify mankind by sub-divisions scientific", Compte-Rendu de la Deuxième Session du Congrès International des Sciences anthropologiques et ethnologiques, Copenhague, 1938, pub. 1939, p. 134.

التى يعتمد عليها فى تميز السلالات بعضها عن بعض تحتاج الى عناية خاصة وحذر بالغ فى الاعتماد عليها • فصفات الرأس مثلا متــوارثة الى حد بعيد ، ولذلك فقد يجمع الفرد بين المتناقضات اذا ورث عن أصلين أو أصول مختلفة من حيث صفات الرأس • أما لون البشرة فيتأثر فيما يبدو بعوامل البيئة اذا أعطيت الزمن الكافى ، ولذلك فان التاريخ البيولوجى للون الجلد فى شخص معين قد يختلف عن التاريخ البيولوجى لصفة أخرى كشكل الرأس الذى يعتمد على الوراثة أكثر ممــا يعتمد على البيئة • وأما نوع الشعر فان له توزيعه الجغرافى الذى قد يلقى ضوءا على بعض مؤثرات البيئة ومنها المناخ ، ولكنه مع ذلك لا يتمشى بالضرورة مع لون الجلد • وكذلك طول القــامة وقوام الجسم فانهما يتأثران بالبيئة والتغذية وبعوامل أخرى ربما كان منها سن البلوغ • وهكذا يبدو أن الصفات المختلفة للجسم والهيكل تتأثر بعوامل مختلفة معقدة ؛ ولذلك فاعتماد الانثروبولوجيين عليها لايخــلو من عيب ، أو هو على الأقــل يستلزم حذرا بعيدا لايجوز معه أن يقسم البشر الى « أجناس » لكل منها تكوينه النقى المحدد ، وصفاته الواضحة التى تنطبق على جميــع أفراده ؛ فذلك غير ممكن بحكم طبيعة التوارث ومؤثرات البيئة • والأفضل من ذلك أن يقسم سكان المناطق بحسب مجموعات الصفات الجسمية التى « تسود » أو « تغلب » بينهم ، والتى هى فى الواقع نتيجة لاختلاط وتزاوج طويل تم فى ظروف معينة ، بعضها يرجع الى الوراثة وأحكامها ، وبعضها الآخر يرجع الى البيئة ومؤثراتها • واذا صح هذا الاعتبار فان نظرية « نقاء الجنس » لا يبقى لها موقع فى الابحاث الانثروبولوجية ؛ بل ان لفظ « الجنس » ذاته لايجوز استعماله اذا أردنا أن نتجنب مواطن الخلط والخطل • وقد يكون لفظ « سلالة » فى اللغة العربية أصلح من لفظ «جنس » ؛ لأن الأخير يفهم منه (بحكم العادة فى الفهم) شىء من نقاء الأصــل واستقلال التكوين والانفراد عن الشبيه ، على حين أن لفظ

سلالة يعنى التسلسل والتوارث ، ولا يستلزم استقلال الأصـــل أو وحدته ، كما انه لم يسأ استعماله فى غير مدلوله الأصلى حتى الآن .

لذلك فاننا سنفضـــل استعمال لفظ الســـلالات البشرية على لفظ الأجناس . ومن الممكن أن نفرق بين السلالات الكبرى أو الأساسية والسلالات الصغرى أو الفرعية . وسيكون مفهوما اننا لا نقر مبدأ نقاء الأصـــل أو الجنس أو الســـلالة . واذا كان هذا صحيحا بالنسبة للدراسات الانثروبولوجية العامة ، فان انطباقه على الحالة فى بلد كمصر أكثر وضوحا ، فهو بلد قد اختلطت فيه السلالات بحكم موقعه الجغرافى كما سنرى بعد قليل .

العوامل الجغرافية وأثرها فى تعمير مصر وفى تكوين سكانها الجنسى:

ولكى تتفهم عمران مصر بالسكان وتوزيع الصـــفات الجنسية بين سكانها تفهما صحيحا، ينبغى أن نجتلى أولا أثر العوامل الجغرافية من هذه الناحية . فاستقرار السكان وهجراتهم واختلاط سلالاتهم بعضها ببعض ، كل أولئك متأثر الى حد كبير بظروف البيئة الجغرافية العامة من جهة ، واختلافاتها المحلية من جهة أخرى . وأول ما ينبغى أن نلحظه فى جغرافية مصر تلك الصحارى الشاسعة التى تحف بالوادى عن جانبيه . ومن المعروف الآن أن صحارى مصر لم تكن دائما من الجفاف بما هى عليه اليوم ؛ وانما كان هناك عصر مطير فى الزمن الجيولوجى الرابع ؛ وكان لهذا العصر دوران مطيران يعرفان بالدور الأول والدور الثانى ، فصلت بينهما وتلت ثانيهما حالة جفـــاف ؛ ثم جاء دور « ممطـــر » أى أكثر مطرا من الوقت الحاضر ولكنه أجف من الدور « المطير » . وعاصر هذا الدور الممطر بداءة العصر الحجرى الحديث أو سبقها بقليل ثم استمر ، مع ميل الى الجفاف التدريجى ، خلال عصر ما قبل الأسرات (أو عصر بداءة المعدن) والعصر التاريخى الفرعونى . ولكن ســـكان الصحارى حتى فى أوائل

الدور الممطر ، أى فى العصر الحجرى الحديث وعصر بداءة المعدن ، كانوا فيما يبدو أقل كثيرا من سكان الوادى ؛ بخلاف الحال فى العصر المطير ، عندما كانت الصحارى مسرحا هاما لحياة الانسان فى العصر الحجرى القديم • على كل حال فان الشىء المهم من الناحية الجغرافية الطبيعية والبشرية أن صحارى مصر اتخذت صورتها الجافة بالتدريج خلال العهد الفرعونى ، حتى بلغت جفافها الحالى حوالى القرن الخامس أو السادس الميلادى • فلم تكن الصحارى فى العهد التاريخى مصدرا هاما من مصادر تعمير مصر ، اللهم الا فى الجهات التى يسقط بها قدر من الأمطار يكفى لأن يعيش بها من السكان الرعاة من يستطيعون اذا ماتكاثروا أو لمسوا ضعفا من حكومات الأرض المستقرة بالوادى أن يغيروا على الأرض الزراعية ويستوطنوا بها أو على حافتها من عصر لعصر ؛ كما حدث على حافة الدلتا الغربية المجاورة لمنطقة مريوط الرعوية ، أو على حافتها الشرقية المجاورة لشبه جزيرة سينا ومنطقتها الجبلية ؛ أو كما حدث فى بعض جهات النوبة ومصر العليا التى تقرب نسبيا من جبال البحر الأحمر العالية حيث تسقط بعض الأمطار التى تعول الرعاة وانعامهم • أما فيما عدا ذلك فان صحارى مصر كانت على الجملة جافة ، بل شديدة الجفاف ، وتكاد تخلو من السكان ؛ فضلا عن أنها بجفافها الشديد أصبحت كالدروع تقى مصر شر الغزوات • بل هى كانت تمثل ما يسميه الجغرافيون « منطقة صعوبة » ؛ بحيث إنها أزهدت سكان مصر فى الهجرة الى خارجها ، وبذلك فان الوافدين الى مصر قلما رغبوا فى النزوح عنها الا فى ظروف وأحوال خاصة كما حدث فى طرد بنى اسرائيل ، أو كما حدث لبعض القبائل العربية الرحل ممن لم تستهوهم الزراعة والحياة الزراعية فمروا بمصر الى شمال أفريقية أو مروا بحافة الأرض الزراعية المصرية جنوبا الى سهول السودان الشمالى ومراعيه • والى جانب ذلك فقد كان للصحارى بالطبع أثرها المعروف ، والذى تمثل فى أن عبورها كان عسيرا

بالنسبة للمهاجرين من الرعاة ، فلم يصل مصر منهم الا عناصر قليلة ، أغلبها من المخاطرين الشديدى المراس ؛ اذ كانت الصحراء مصفاة تعمل لبقاء الأصلح من المهاجرين الى مصر ، بل كانت سببا فى أن مصر لم يصلها فى أى وقت من الأوقات هجرات كبيرة العدد ، تغطى على حياتها ، وتطمس معالم عمرانها السابق ، وتغير صفات سكانها الجنسية تغييرا أساسيا ، كما حدث فى بعض البلاد الأخرى والمجاورة لمناطق بها كثرة من الرعاة • ولم نسمع فى تاريخ مصر الطويل بغزوة كبيرة العدد غيرت مظهر البلاد وتكوينها الجنسى ، كما حدث فى غزوة الآريين لشمال الهند مثلا،أو غزوات المغول لسهل الصين الشمالى أو لجنوب سهل الروسيا،أوحتى غزوات الساميين لمنطقة آشور القديمة • ولعل هذا أن يكون هو السر فى أن سكان مصر استطاعوا على الدوام أن يحافظوا على أسس تكوينهم الجنسى العام ، فاستوعبوا الغزاة وهضموا أعدادهم القليلة أو المعقولة ، والتى سمحت بتسربها قسوة الصحراء •

وعامل جغرافى آخر غير الصحارى هو سواحل مصر • وينبغى هنا أن نميز بين ساحل البحر الأحمر وساحل البحر الأبيض المتوسط • فالبحر الأحمر يمتاز بكثرة الشعاب المرجانية ؛ ويزيد من خطورة الملاحة فى طرفه الشمالى كثرة الأعاصير الشتوية وما يصحبها من رياح عاصفة متغيرة الاتجاه ؛ ولذلك لم يصل مصر عن طريقه الا بعض عناصر تجارية قليلة تركت بعض آثارها على شكل نقوش ورسوم على صخور الصحراء الشرقية ؛ يرجع بعضها الى العهد الفرعونى (أو قبله ؟) وبعضها الآخر الى العهد الاغريقى الرومانى ؛ ويبدو أن بعض أصحابها جاءوا من جنوب بلاد العرب (وربما من شرقها) ولكنهم على كل حال كانوا قلة ضئيلة من التجار والملاحين ولم يمثلوا غزوة بالمعنى الصحيح [١] • وحتى العرب

(١) عن هذه النقوش والرسوم القديمة انظر : H. Winkler "Voelker und Voelkerbewegungen im vorgeschichtlichen Oberaegypten im Lichte neuer Fels bilderfunde" Stuttgart 1937.

الذين دخلوا مصر والسودان فيما بعد لم ينتقلوا الى وادى النيل عبر البحر الأحمر ، وانما كان وصولهم كما سنرى عن طريق شبه جزيرة سينا • وأما ساحل البحر المتوسط فقد امتاز بصلاحيته للملاحة واعتدال الرياح فى شماله ، ولذلك كان مدخلا من مداخل مصر ولا سيما فى شمالها وشمالها الغربى حيث المرافىء أصلح وأقل تعرضا لأن تردمها الرواسب التى يدفعها تيار بحرى خفيف يجرى من الغرب الى الشرق فيردم بها المرافىء فى شمال شرق مصر • ولقد دخلت مصر بالفعل بعض العناصر البحرية منذ عصر لا يمكن تحديده ، ولكنه يسبق التاريخ المكتوب ؛ واستمر وصول هذه العناصر البحرية لاسيما فى أواخر العهد الفرعونى وخلال العهد الاغريقى الرومانى ، عندما أصبحت الاسكندرية قاعدة التوغل البحرى الى داخل مصر • ولا يزال أثر العناصر البحرية التى تتابعت موجاتها ظاهرا فى موانى مصر الشمالية ، ومنها الاسكندرية ورشيد ودمياط •

فاذا ما تركنا الصحارى والسواحل وانتقلنا الى وادى النيل ذاته ، فاننا نلحظ الفرق الواضح بين الدلتا والوادى فى الصعيد • فالدلتا أرض فسيحة تحف بها صحارى أقل جفافا فى الشمال الغربى وعند أطراف شبه جزيرة سينا ؛ كما يقع البحر فى شمالها مباشرة • ولذلك فانها كانت أكثر تعرضا لغزوات الرعاة الليبيين والساميين وغزوات البحريين من جزر اليونان وسواحل البحر المتوسط ؛ وكانت بذلك وقاء للصعيد الذى لم يبلغه الا عدد قليل نسبيا من هذه الغزوات • وعلى العكس من ذلك تعرض الصعيد لغزوات الحاميين القدماء من شرق أفريقية ، ولبعض العناصر الافريقية ممن انتشروا نحو الشمال فى بعض الأوقات منذ عصر ما قبل التاريخ ولم يبلغوا الدلتا الا فى القليل • على أن وجه الفرق الكبير بين الدلتا والصعيد أن الأولى أفسح مساحة وأكثر سكانا ، ولذلك فانها كانت أقدر من الصعيد على استيعاب الغزاة وهضمهم والتأثير فى تكوينهم الجنسى بما يقربهم بالتدريج من السكان الأصليين • فاذا ما تذكرنا أن

أغلب غـزوات مصر أتت من الشمال والشمال الشرقى أدركنا كيف أن اتساع مساحة الدلتا وكثرة سكانها كانا من العوامل التى ساعدت على أن يحتفظ وادى النيل الأدنى بطابعه الجنسى العام خلال العصور ، والتى عملت على وقاية مصر الوسطى والجنوبية من أن تطغى عليهما موجات الهجرة أو الغزوات الخارجية •

ومع ذلك ففى كل من الدلتا والصـعيد مناطق يجب التميز بينهـا بحسب الموقع والظروف الجغرافية العامة • فشرق الدلتا مثلا كان معرضا لغزوات الرعاة من الساميين وغيرهم ممن دخلوا أرض مصر ؛ وقد كان وادى طميلات بالذات وكذلك الحافة الشرقية للأراضى الزراعية طريق الهجرة ، فتتابعت عليهما العناصر ؛ بخـلاف قلب الدلتا فقد كان محميا نسبيا • أما غربها فقـد كان أكثر تعرضا لغزوات الليبيين القدماء ؛ ولا يزال أثر سكان مريوط ظاهرا فى غـرب مديرية البحـيرة وشمالها الغربى • كذلك السواحل الشمالية وموانيها لها صفاتها الخاصة ، حيث تبدو المؤثرات البحرية . وأما فى الصعيد فهنـاك أولا الفرق بين مصر الوسطى ومصر العليا وبلاد النوبة ؛ وقد كانت لكل منها صفتها الخاصة • ويقال ان الوسطى ربما كانت أقل جهات مصر اختـلاطا فى سـكانها لحمايتها بالدلتا فى الشمال من جهة ، وبالنوبة ومصر العليا فى الجنوب من جهة أخرى ، ولأن الصحارى على جانبيها جافـة قليلة الوديان ، ثم لبعدها عن البحار حتى البحر الأحمر، لأن النيل عندها ينحنى نحو الغرب قبل أن يعود فيقترب من البحر الأحمر عند ثنية قنا • ومع ذلك فمسألة نقاء السكان الجنسى فى مصر الوسطى مسألة نظرية أكثر مما هى حقيقة ثابتة ؛ وقد تظهر الدراسة الجنسية فى المستقبل أن مصر الوسطى لاتقل فى اختلاط سكانها عن غيرها من جهات مصر • اذ المعروف الآن أنهـا كانت تمثل « منطقة توسع » بالنسبة لسكان الدلتا ، ولغزاتها الذين كثيرا ما كانوا يستقرون عند رأس الدلتـا وعاصـمة البلاد أول الأمر ، ثم

يتوسعون جنوبا بعد ذلك • كما أنها كانت منطقة توسع أيضا بالنسبة لأمراء مصر العليا ومنطقة قنا ذات المساحة المحدودة ، بخلاف مصر الوسطى حيث يبدأ الوادى فى الاتساع ، فيغرى ذلك سكان الصعيد الأعلى وأمراءه فينتقلون الى مصر الوسطى ، ويتخذون منها قاعدة قبل الوثوب الى الدلتا فى الشمال • وهكذا كانت مصر الوسطى مطمعا لأهل الشمال وأهل الجنوب على السواء ؛ ولا يبعد أن يكون ذلك قد أثر فى تكوينها الجنسى تأثيرا لا تكشف عنه الا الدراسة المفصلة فى المستقبل • (١)

وأما مصر العليا فقد كانت بعيدة عن مصدر الغزوات فى الشمال كما ذكرنا ؛ ولكنها كانت معرضة للغزاة والمتوسعين من الجنوب مع النيل ، أو من الجنوب الشرقى مع وديان الصحراء الجنوبية الشرقية • كما أن بعض جهاتها ، مثل منطقة قوص فى ثنية قنا ، كانت واقعة على طريق للتجارة مع البحر الأحمر ، بل على طريق للحج فى العصور الوسطى من بلاد المغرب الى جوف الصعيد وقوص ثم الى البحر الأحمر فالبلاد المقدسة • وقد أثر ذلك فى سكانها تأثيرا لا يزال ينتظر الدراسة والاستقصاء •

وأما بلاد النوبة بين الشلالين الأول والثانى فتمثل « منطقة صعوبة » اذ يضيق الوادى فيها ، ولا يكاد يوجد به غير القليل من الأرض الزراعية ؛ فضلا عن أن الجنادل والصخور تكتنف مجرى النهر من الشمال ومن الجنوب ، ولذلك فقد كان سلوكه من الصعوبة بمكان . وإلى جانب هذا فان قلة الأراضى الزراعية بالنسبة للصعيد فى الشمال ولمنطقة دنقلا فى الجنوب لم تطمع الغزاة فى أقليم النوبة الشمالية كمنطقة للاستقرار ؛ وبذلك

---

(١) عن مصر الوسطى وبقية الأقاليم الجغرافية الصغيرة أوالأوطان الصغرى فى وادى النيل الأدنى راجع : سليمان حزين « البيئة والموقع الجغرافى وأثرهما فى تاريخ مصر العام » مجلة الجمعية الجغرافية الملكية المصرية مجلد ٢٠ القاهرة ١٩٤٣ ص ١١ — ١٩

استطاع سكانه الأصليون أن يبقوا به ، وأن يحتفظوا بثقافتهم ولغتهم القديمة حتى الآن ، وذلك رغم الموجة العربية التى سارت على جوانب النيل فى مصر وانتشرت حتى شملت سهول السودان دون أن تستقر فى بلاد النوبة الشمالية الا فى مناطق محدودة • ومع ذلك فقد زاد من تعقيد الحالة فى بلاد النوبة الشمالية هذه أنها كانت تعتبر فى بعض الأوقات منطقة دفاع هامة توضع فيها حاميات الجند والمرتزقة فى جزيرة الفنتين حينا ، وفى بعض الجهات والنقط الواقعة الى جنوبها حينا آخر ؛ واستمر ذلك فى عهود متقطعة منذ أيام الدولة الصاوية والعهد الاغريقى حتى عهد محمد على • وكان لهذا بالطبع أثره فى الناحية الجنسية •

من كل هذا يتبين مبلغ التعقيد على طول وادى النيل فى مصر ، وما ينتظر أن يكون من تأثير صفة الأقاليم الجغرافية على عمرانها وتكوين سكانها الجنسى • وليس هذا التعقيد بالطبع مقصورا على الوادى ؛ وانما هو يتعداه الى مناطق أخرى مجاورة له أو متصلة به ؛ ومنها حوض الفيوم ،وهو شبه واحة تلتقى فيها مؤثرات الحياة النيلية المستقرة ومؤثرات الصحراء الليبية الشمالية الرعوية• ومنها واحات مصر، وتقع فى مجموعتين شمالية وجنوبية• والأولى كانت متأثرة بالهجرات وطرق التجارة القديمة وطرق الحج بين شمال أفريقية الغربى وشمالها الشرقى . أما الثانية فقد تأثرت ولا شك بطرق التجارة مع افريقية السودانية ؛ كما بلغتها بعض الغزوات فى أعصر وأوقات غير معروفة بالضبط ، ولكنها على كل حال أنفذت بعض العناصر الافريقية الى واحات مصر الجنوبية • فضلا عن أن بعض تلك الواحات كالخارجة كان على طريق تجارة الرق ودرب الاربعين ، فتأثر سكانها بذلك من الناحية الجنسية •

وكذلك يمتد التعقيد والاختلاف الاقليمى والمحلى الى صحراء مصر الشرقية • ولابد أن نميز فيها بين جنوب تلك الصحراء وشمالها •

فالجنوب تصيبه بعض الأمطار التى تغذى النبات ، ويتصل سكانه بأهل السودان الشرقى وبلاد اريتريا اتصالا يرجع الى عهد غزوات الحاميين قبل مطلع التاريخ ، ويمتد فى صورة متجددة الى وقتنا الحاضر . أما شمال الصحراء الشرقية فجاف قليل الوديان قليل السكان ، كثير من أهله فى الوقت الحاضر قد نزحوا الى جهاته الساحلية حيث مناجم الفوسفات ومنابع الزيت ، وكانت هجراتهم من مصر العليا ومنطقة ثنية قنا بالذات ، ومن جهات أخرى من القطر . فاذا ماانتقلنا من الصحراء الشرقية الى شبه جزيرة سينا وجدنا الاختلاف ظاهرا بين جنوبها وشمالها . ففى الجنوب توجد الجبال العالية التى يصيبها المطر ، وتتكون الصخور من مواد نارية ومتبلورة قديمة تحتفظ بالرطوبة ، وتشجع على نمو الأعشاب . ولذلك كان جنوب شبه الجزيرة صالحا لتوسع بعض الرعاة من منطقة مدين فى شمال الحجاز . أما شمال شبه الجزيرة فسهل تغطى جانبا منه كثبان الرمال ، ولكن توجد به بعض الآبار بين الكثبان . وهو لايصلح كثيرا للرعاة ، ولكنه طريق تجارة وغزو قديم ، سلكه التجار وناقلوا السلع بين مصر والشرق الأدنى القديم ، وسلكته الغزوات المتتابعة التى دخلت مصر فى مختلف أدوار تاريخها ، ابتداء من غزوات الساميين أيام عهدى الاقطاع الأول والثانى ، وغزوة الهكسوس ، ثم غزوات البابليين والآشوريين ، ثم الفرس ، فجيوش الاسكندر ، فالجيوش العربية المتتابعة ، فغزوة الأتراك العثمانيين . كما خرجت على طوله حملات المصريين أيام الفراعنة (الدولة الحديثة) ، وفى بعض أيام العرب والمماليك ثم فى عهد محمد على . ولذلك فان هذا الطريق الشمالى من شبه جزيرة سينا له أهميته الخاصة فى دراسة التكوين الجنسى لسكان هذا الركن من مصر ، بل هو مهم فى دراسة تكوين السكان فى شمال شرق مصر برمته .

كل هذا عن عوامل البيئة الجغرافية المحلية فى مختلف أجزاء أرض مصر . ولكن هناك عاملا جغرافيا آخر غير البيئة المحلية هو الموقع

الجغرافى • وقد كان له أثر بالغ فى سكان مصر وتاريخهم الجنسى • وينبغى فى دراسة الموقع الجغرافى أن نميز بين موقع مصر بالنسبة للبلدان المجاورة من جهة ، وموقعها بالنسبة للعالم البعيد من جهة أخرى • ولاشك أن موقعها وصلاتها بالنسبة للعالم المجاوركان أهم من حيث المؤثرات الجنسية ، ومن حيث الهجرات من غرب آسيا حينا ، ومن شرق أفريقية حينا ، ومن بعض جهات شمال أفريقية أو من جزر البحر المتوسط حينا آخر • ولكن موقع مصر بالنسبة للعالم البعيد لم يخل من أثر • وقد بقيت قيمة الموقع الجغرافى كامنة أو مقتصرة على صلات مصر القريبة والمباشرة خلال العصر الفرعونى ؛ حتى اذا ما جاء الاسكندر الأكبر ظهرت « العالمية » ، واحتك الشرق بالغرب احتكاكا عنيفا وفى نطاق واسع ؛ وكان من نتيجة ذلك أن برزت قيمة موقع مصر عند مقرن قارات ثلاث ، وعند مفرق البحار المعتدلة الشمالية والبحار الدفيئة الجنوبية ، وفى منطقة متوسطة من حيث الظروف المناخية فهى تلائم سكنى العناصر الشمالية والعناصر الجنوبية فى آن واحد • وقد أطمع ذلك كله بعض الغزاة فى مصر ، التى اجتذبت عناصر أتى بعضها من جهات بعيدة • ولم يقتصر الأمر على العصر القديم أيام الاسكندر ومن أتى بعده ، وانما امتد الى العصر الوسيط والعصر الحديث • ولم تكن هذه بالطبع هجرات كبيرة العدد ؛ ولكنها كانت غزوات تركت أثرها الجنسى واضحا ملحوظا ، لاسيما فى مناطق الحاميات • وكان سبب ظهورها أنها غزوات من عناصر بعيدة نسبيا من حيث تكوينها الجنسى عن سكان مصر الأصليين ؛ بخلاف الحال فى الهجرات أو الغزوات التى أتتت من بلاد قريبة ومجاورة ، والتى كانت شديدة الشبه بسكان مصر الأصليين •

سكان مصر وتطورهم الجنسى على مر العصور

والآن وقد استعرضنا العوامل الجغرافية الأساسية التى أثرت فى

عمران مصر بالسكان وفى التميز بين مختلف العناصر التى تقطن مايمكن أن نسميه بالأوطان الصغيرة فى وادى النيل الأدنى والأراضى المجاورة له ، فاننا نستطيع أن ننتقل الى الناحية التاريخية ، فنتتبع الموجات المختلفة التى تعاقبت على مصر ، وأثرت فى تكوين سكانها الجنسى . ولابد لنا هنا من أن نبدأ بأول دور بدأت الحيـــاة فيه تتركز فى مصر ، وبدأت الحضـــارة تتميز فى هذا الركن من أفريقية عنها فى البـــلدان المجاورة والبعيدة ، مما يجوز أن يدل على ظهور شيء من الصفات المحلية للسكان ؛ أو مما يدل فى القليل على توافر شيء من العزلة النسبية لسكان مصر ، ويسمح لسلالاتهم أن تأخذ طريقها الى أن تصبح ذات طابع محلى من ناحية الصفات المتوارثة والمتأثرة بالبيئة المحلية وظروفها الخاصة . وهذا الدور الأول لتركز الحضارة والحياة فى مصر هو مايعرف بالعصر الحجرى القديم الاعلى[1] . وقد كان المعتقد الى وقت قريب أن هذا العصر يمثل أول دور ظهر فيه الانسان العاقل(Homo Sapiens). ولكن تبين أخيرا أن من الجائز أن يكون ظهور هذا النوع من الانسان قد سبق ذلك فى جهات مختلفة من الأرض . على كل حال فان بقايا الانسان الأول التى عثر عليها فى مصر حتى الآن قليلة جدا ؛ وربما كان مرجع هذا الى قلة البحث عنها . وقد عثر ساندفورد على بعض عظام من العصر الحجرى القديم الأعلى فى تكوينات بحوض كوم امبو[2]. ومن الطريف أنهاقريبة

(١) عن هذا الدور وبداءة تركز الحضارة وتخصصها فى مصر (وغيرها) على أساس اقليمى انظر :

S.A. Huzayyin "Some new light on the Beginnings of Egyptian Civilization", *Bull. de la Soc. Roy. de Géog. d'Egypte*, t. XX, Le Caire 1939, pp. 207-212.

وكذلك انظر :

S.A. Huzayyin "The Place of Egypt in Prehistory "*Mém. de l'Institut d'Egypte* t. 43, Le Caire 1941, pp. 251-263, and 333-334.

(٢) انظر :

K.S. Sandford "Paleolithic Man and the Nil Valley in Upper and Mid. Egypt" Prehist. Survey of Egypt and W. Asia. vol. III, *Oriental Institute Pub.* vol. XVIII, Chicago 1934, p. 86.

S.A. Huzayyin "The Place of Egypt etc." *loc. cit.* p. 272.

فى تكوينها من عظام السكان فى عصر ماقبل الاسرات ، أى فى عصر بداءة المعدن . ولئن دل هذا على شيء فعلى أن نوع الانسان العاقل ربما كان ظهوره بمصر حتى قبل العصر الحجرى القديم الأعلى ، اذ أن تطوره بمصر فى ذلك العصر كان قد بلغ شأوا بعيدا بدليل التشابه بين بقاياه اذ ذاك وبين بقايا سلالات عصر ماقبل الاسرات الذين خلفوه فى مصر .

فاذا ماانتقلنا الى العصر الحجرى الحديث ، وهو أول عصر استقر فيه السكان واعتمدوا على الزراعة والرعى بدلا من الصيد والجمع والالتقاط ، فاننا نجد بقايا الانسان العظمية فى مقابر عثر عليها فى كل من مصر السفلى ومصر العليا ، ويرجع تاريخها الى حوالى ٥٠٠٠ ق.م. (مع احتمال خطأ فى التقدير يعادل قرنين بالزيادة أو بالنقص) . ففى الشمال عثر يونكر (H. Junker) على مقابر فى محلة قديمة تعرف باسم مرمدة بنى سلامة وتقع عند الحافة الغربية للدلتا قرب الخطاطبة . وقد دلت دراسة الهياكل [١] على أن سكان غرب الدلتا فى ذلك العهد كانوا من سلالة البحر الابيض المتوسط ؛ فهم طوال الرأس ، وليس بهم أى أثر افريقى أو شبه زنجى . ولكن حجم الجمجمة كان على الجملة أكبر منه لدى العناصر التى جاءت بعدهم ، أى فيما يعرف بعصر ماقبل الاسرات (وهو يعادل عصر بداءة المعدن) .

ويقابل أهل مرمدة بنى سلامة فى مصر العليا سكان منطقة ديرتاسا فى شرق النيل فى مديرية أسيوط [٢]. وتدل دراسة بقاياهم على أنهم امتازوا برؤوس كبيرة أيضا ولكنها أكثر عرضا من رءوس أهل الشمال ؛ أو على الأقل هى مختلطة فأغلبها مستطيل ولكن بعضها عريض . وربما كان هذا أول دليل على اختلاط السكان فى مصر . وقد امتاز التاسيون

(١) انظر :

D.E. Derry "Preliminary note on Human Remains from a Neolithic Settlement at Merinde-Benisalame" in *Anzeiger der philos.-hist. Klasse der Ak. der Wissenschaften in Wien*, Jahrgang 1930, No. V-XIII, pp. 53-60.

(٢) انظر :

G. Brunton, "The Beginnings of Egyptian Civilization "*Antiquity*, vol. III, No. 12 Dec. 1929, pp. 466-467.

القدماء أيضا باستعراض الوجه وقوة الفك وبروز عظام الحاجب • ثم خلفهم فى مصر العليا قوم يعرفون بالبداريين ، نسبة الى البدارى فى جنوب دير تاسا بقليل • ويرجع تاريخهم الى أول عصر المعادن أى حوالى منتصف الألف الخامسة قبل الميلاد • وتدل دراسة هياكلهم العظمية (١) على أنهم كانوا يختلفون عن التاسيين فى أن عظامهم على الجملة أصغر وهيا كلهم أرق ، حتى انه ليصعب تماما تمييز جماجم الذكور عن جماجم الأناث • وتدل الدلائل كلها على أنهم لابد وأن يكونوا قد نزلوا مصر العليا من الجنوب أو الجنوب الشرقى ؛ فرءوسهم طويلة أو متوسطة ، ولكن الفم متقدم وبارز الى الأمام ، وكذلك الأنف شبه أفطس، وان كان الشعر متموجا وليس مفلفلا ، كما أن لون الجلد (وقد بقى بعضه ملتصقا بالعظام) كان قمحيا • ولذلك فان البداريين القدماء لابد وأن يكونوا قد تأثروا بالحاميين الذين وصلوا شرق افريقية وبلاد الصومال فى وقت لايمكن تحديده بعد ، وربما كان فيهم أثر شبه زنجى خفيف (؟) وان لم يكن زنجيا بالمعنى المعروف • على كل حال فالمهم أنهم يمثلون أقدم العناصر التى دخلت وادى النيل الأدنى من شرق أعاليه الأثيوبية ؛ ويبدو أنهم يشبهون بعض سكان شرق أثيوبيا وشرق السودان الحاليين ، كما أنه لايبعد أن تكون لهم صلة قديمة ببعض العناصر الدرافيدية التى تسكن الآن جنوب الهند والتى يرجح أنها كانت أكثر انتشارا نحو الغرب فى العصر القديم •

وبعد عصر البدارى يجىء ما يعرف بعصر ما قبل الأسرات (Predynastic) وهو يمتد لألف سنة أو أكثر قبل توحيد مصر وقيام الأسرة الأولى حوالى ٣٢٠٠ ق•م • ويختلف فيه سكان مصر العليا أو الجنوبية

---

(١) أنظر :
B.N. Stoessiger "A Study of the Badarian Crania recently excavated by the Brit. School of Archaeology in Egypt", *Biometrika*, vol. XIX, 1927, pp. 110-150; also article by G. M. Morant in same volume pp. 293-309.

عن سكان مصر الشمالية بعض الاختلاف [1] • ففى مصر العليا كان السكان طوال القامة كبار حجم الرأس والوجه بالنسبة لسكان البدارى الذين سبقوهم ، كما أن فمهم لم يكن له ذلك البروز ولا أنفهم له ذلك الاستعراض اللذين لاحظناهما عند البداريين • أما سكان مصر السفلى أو بعبارة أصح مصر الشمالية (بما فى ذلك مصر الوسطى) فقد امتازوا برأس أكثر عرضا (أو هو فى الحقيقة أميل الى التوسط بدلا من أن يكون طويلا [2]) وبوجه أكثر طولا وأنف أكثر اعتدالا من أهل الجنوب • ومع ذلك كله فيمكن أن يقال ان سكان مصر فى عصر ما قبل الأسرات كانوا جميعا من سلالة البحر المتوسط • وغاية ماهنالك أن عنصر الجنوب وعنصر الشمال كانا يمثلان فرعين مختلفين من تلك السلالة ، لكل منهما صفاته المميزة الى جانب الصفات المشتركة بين الاثنين • على أن الشيء الطريف أن ظاهرة الاختلاف بين الاثنين أخذت تختفى بالتدريج خلال العهد الفرعونى بسبب طغيان صفات أهل الشمال ، نظرا لكثرة عددهم وقدرتهم على استيعاب من قد يغزوهم من أهل الجنوب ؛ بخلاف هؤلاء الأخيرين فقد كانوا دواما قليلى العدد نسبيا متأثرين بمن ينتشر بينهم من عناصر الشمال ؛ ونظرا كذلك — فيما يبدو — لأن بعض الصفات الجنسية لأهل الشمال ، ومنها ميل الرأس الى التوسط بدلا من الطول ، كانت من النوع الذى يسميه الانثروبولوجيون « صفة غالبة » (dominant) بمعنى أنها اذا اختلطت مع صفة مقابلة لها فى الوراثة بسبب تزاوج شخصين أحدهما عريض الرأس نسبيا والآخر طويله ، فان الشخص

---

(١) المقصود هنا بمصر الجنوبية مصر العليا بالمعنى الضيق وتمثلها منطقة على الخصوص نقادة فى غرب ثنية قنا أما مصر الشمالية فتشمل مصر الوسطى وتمثلها على الخصوص منطقة جرزة فى وادى النيل أمام الفيوم . أنظر عن دراسة البقايا العظيمة والجماجم من عصر ماقبل الأسرات .

G.M. Morant "A Study of Egyptian Craniology from Prehistoric to Roman Times", *Biometrika*, vol. XVII, 1925, pp. 1-52.

(٢) كان متوسط مقياس الرأس فى مصر الشمالية فى ذلك العهد ٧٥ يقابله فى مصر العليا ٧٢

الأول يكون بحكم قواعد الوراثة بين الصفتين أقدر على أن يورث صفته للجيل الجديد • ومهما يكن من أمر فاننا اذا صرفنا النظر عن الغزوات الخارجية التى أصابت مصر فى العهد الفرعونى ، فان التاريخ الجنسى لمصر خلال ثلاثة آلاف عام ، هى مجمل العهد الفرعونى ، قد تمثل فى طغيان صفات أهل مصر الشمالية على القطر كله طغيانا تدريجيا بطيئا ، تمثل فى زيادة عرض الرأس نسبيا حتى صار على الجملة أميل الى التوسط بعد أن كان أميل الى الطول ، كما تمثل فى زيادة طول الوجه واعتدال الأنف ؛ وان لم يمنع ذلك من ظهور أعراض تغاير ذلك كله فى حالات بعض الغزوات التى أصـــابت أطراف مصر الشمالية أو الجنـــوبية بين حين وحين • (١)

والحق أن مصر قد دخلتها فى العهد الفرعونى عدة غزوات ؛ وان كانت قد استطاعت فى كل الأحوال أن تهضم الغزاة بما لا يدع مجالا الى تغيير مجرى تطور سكانها وتكوينهم الجنسى (٢) • على أن بعض تلك الغزوات يستحق الاشارة • والراجح الآن أن المصريين كانوا فى تكوينهم الأصلى مشتقين من عنصر ذى لغة وثقافة حامية ، يبـــدو أنه أتى فى الأغلب من شرق افريقية أى من منطقة اريتريا القديمة وما جاورها ؛ ثم تأثروا فيما بعد بعنصر مشابه بعض الشبه من الناحية الجنسية ، ولكنه مختلف فى ثقافته ، هو العنصر المعروف بالسامى ، والذى أتى من الشمال الشرقى وتوغل فى مصر • ومع ذلك فهذا العنصر السامى يصعب جدا تحديد كيانه الجنسى ؛ فلفظ « سامى » ولفظ « حامى » لا يجوز فى الواقع اعطاؤهما أية دلالة جنسية دقيقة ، وغاية ماهنالك أنهما يمثلان

---

(١) انظر خلاصة طيبة لهذا التطور البطىء فى :
C.S. Coon: "The Races of Europe" New York 1939, pp. 94-96; also:
G.M. Morant, "A Study of Egyptian Cranilogy etc.", *Biometrika, op. cit.*, 1925,
(٢) عن تكوين قدماء المصريين انظر :
G. Elliot Smith: "The Ancient Egyptians and the Origin of civilization", New Edition 1923.

فرعين من سلالة البحر المتوسط ، ربما كان أحدهما وهو الحامى متأثرا بعنصر آخر قديم غير معروف بالضبط ؛ كما أن الساميين أنفسهم قد تأثروا ولاشك بعناصر أخرى غير سلالة البحر المتوسط وأغلبهم من سكان الهضبة الايرانية والأرمينية [1] . والشيء الذى يهمنا أن الغزوات التى دخلت من الشمال قد اشتملت على عناصر مختلفة ؛ منها عنصر أرمينى مختلط يبدو أنه وصل فى عهد بناة الأهرام؛ ومنها عناصر شقراء نسبيا أتت من الشمال أو الشمال الغربى وأثرت فى السكان أو الطبقة الحاكمة ؛ ومنها الليبيون الذين غزوا غرب الدلتا قبل العهد الفرعونى وخلاله ، لا سيما فى الدولة الحديثة ؛ ومنها الساميون المختلطون الذين أتوا فى عهد الاقطاع الأول ثم فى عهد الاقطاع الثانى ؛ ثم الهكسوس الذين انشأوا دولة مؤقتة وسيطروا على جانب كبير من البلاد ؛ ثم اليهود الذين دخلوا مصر ثم خرجوا منها ؛ ثم الاغريق المختلطون الذين نزحوا للعمل فى التجارة أو الجيش لاسيما فى العهد الصاوى ؛ ثم المرتزقة الذين استقروا فى جهات ومناطق مختلفة من مصر وكانوا خليطا فى تكوينهم الجنسى ؛ ثم منها النوبيون وسكان الجنوب الذين ساروا مع النيل واستقروا فى بعض أجزاء واديه الى الشمال . كل هؤلاء أثروا ولاشك فى التكوين الجنسى العام لسكان وادى النيل فى مصر . ولكن كل ما فعلوه أنهم أضافوا الى ثروة مصر وسكانها فى المميزات الجنسية المتوارثة ؛ ولم يغيروا الطابع العام للسكان ؛ فبقى المصريون على مر الزمن جزءا من سلالة البحر الأبيض المتوسط ، أضيفت اليه دماء خارجية فاستوعبها بفضل عدده الكبير وحياته المستقرة وتوافر العوامل الجغرافية التى أشرنا اليها من قبل ، والتى حفظت على مصر شخصيتها فى السلالة والتكوين الجنسى

---

(١) يطلق أحيانا لفظ الجنس أو السلالة القوقازية ليشمل الحاميين والساميين وغيرهم من العناصر غير الزنجية والمنتشرة فى جنوب غرب آسيا وشمال أفريقية وشرقها. ولكنه أيضا لفظ غير دقيق فى دلالته الجنسية ويميل الرأى إلى إهمال استعماله .

العـام ... تلك الشخصية التى لا تزال تحتفظ بكيانهـا وطابعها حتى يومنا الحاضر .

وفى العهد الاغريقى الرومانى تجدد الاختلاط واتخذ صورة خاصة فى بعض المناطق . ولابد لنا من أن نشير هنا الى أن الاغريق القدماء لم يكونوا ليمثلوا فرعا نقيا من سـلالة البحر المتوسط ؛ بل هم قد اختلطت فيهم بعض الدماء النوردية (الشمالية) وغيرها من دماء البلقان القديم . ولذلك فان دخولهم واستقرارهم فى بعض أجزاء مصر أثر ولاشك فى تكوين سكان تلك المنـاطق ؛ وأهمها منطقة الاسكندرية وبعض جهات البحيرة الغربية وأطراف الفيوم ، حيث استعمر الاغريق فى العهد البطلمى بعض الأراضى المستجدة الى جانب عملهم فى التجارة . والملاحظ فى تلك المناطق حتى الآن ، بل وفى بعض جهات الواحات التى انتشروا اليها أن هناك شقرة نسبية ملحوظة فى أفراد قلائل من السكان هم ورثة بعض المميزات التى كانت دخيلة على بلاد الاغريق ذاتها (أو بلاد الرومان فيما بعد) ثم انتقلت الى مصر . ولكن وجود هؤلاء الأفراد لا يغير مع ذلك من الصـفة العامة لسكان مصر ، بل ولا لسكان تلك المناطق بالذات .

وبعد ذلك جاء العهد العربى ، وامتاز بتوسع جديد من بلاد العرب . ويقال ان هجرات العرب وتوسعهم قد تأثرت بحدوث تغيرات مناخية وحلول الجفاف أو اشـتداده بتلك المنطقة ابتداء من القـرن الثالث الميلادى ، ثم بلوغه أقصى شدته بعد القرن السادس[1] . وكان هذا الجفاف

---

(١) عن جفاف شمال بلاد العرب أنظر :

E. Huntington "Palestine and its Transformation" Cambridge 1911.

وعن جفاف شمال بلاد العرب وكذلك جنوبها أنظر :

S.A. Huzayyin "Arabia and the Far East" *Pub. Soc. Roy. de Géog. d'Egypte*, Cairo, 1942, pp. 2-7 and 31-38.

وكذلك أنظر :

S.A. Huzayyin "Changements historiques du Climat et du Paysage de l'Arabie du Sud", *Bull. Faculty of Arts*, Cairo, vol. III, 1935 pp. 19-23.

عاما فشمل جنوب بلاد العرب كما شمل شمالها، ولذلك كثرت الاضطرابات فى شبه الجزيرة، وكثر تنقل القبائل وهجراتها وأيامها فى الحرب والقتال والشحناء • وتوسعت القبائل من القحطانيين (الجنوبيين) والعدنانيين (الشماليين) فدخلت مصر (١) • وهنا أيضا لابد أن نشير الى الفرق فى التكوين الجنسى بين عرب الجنوب وعرب الشمال • فالجنوبيون يمتازون باستعراض الرأس (ماعدا شمال اليمن) وغلظ الملامح بالنسبة للشماليين، الذين يمثلون سلالة البحر المتوسط تمثيلا لا بأس به • ومع ذلك فان القبائل الجنوبية التى دخلت مصر عن طريق الحجاز وشبه جزيرة سينا كانت قليلة بالنسبة للقبائل الشمالية؛ ولعل هذا هو السر فى أن غزوات العرب المتلاحقة لم تؤثر كثيرا فى تغيير تكوين المصريين العام، لأن العناصر الجديدة كانت مشابهة فى صفاتها العامة لسكان مصر • ولقد نزح بالفعل كثير من القبائل العربية التى استقرت فى بعض أجزاء مصر كشرق الدلتا لاسيما بين القرنين السابع والرابع عشر الميلاديين، أى فى الفترة التى ساد فيها حكم العناصر العربية؛ اذ أنه بالاضافة الى الجيش الفاتح أيام عمرو بن العاص، فان كل حاكم عربى تلاه كان يحضر معه جيشه وحرسه الخاص من الأعراب وقد يبلغون آلافا عديدة بل عشرين ألفا فى بعض الحالات، فضلا عن أن قبيلة الحاكم الجديد كانت تجد فى توليته ما يشجع على الهجرة والافادة من نفوذه فى أرض الكنانة (٢) • ومع ذلك فينبغى أن نلحظ أن بعض القبائل كانت

---

(١) عن توسع العرب إلى وادى النيل عامة والسودان خاصة أنظر :
H.A. MacMichael "A History of the Arabs in the Sudan",:
2 volumes, Cambridge 1922.

وعن أدوار التوسع العربى إلى مصر أنظر :
A.M. Ammar "The People of Sharqiya" *Pub. Soc. Roy. de Géog. d'Egypte*, Cairo 1944, pp. 29 *et seq.*

(٢) أنظر :
H.A. Mac Michael "A History of the Arabs in the Sudan", *loc. cit.* vol I pp. 159-160

لا ترغب فى الاشتغال بالزراعة ، فتبقى فترة على جوانب أرض مصر ثم تجذبها البادية من جديد ؛ وربما كان هذا من العوامل التى حدت ببعض القبائل لأن تعبر مصر عبورا فى طريقها الى شمال افريقية ، أو لأن تسير مع الوادى جنوبا الى مراعى السودان . وبعد انقضاء العهد العربى بالمعنى الصحيح حل المماليك وغيرهم من العناصر الشركسية والتركية محل العرب فى حكم مصر وسيادتها ، فتوقف التيار العربى تقريبا ، وجاءت فترة استطاعت مصر فيها أن تهضم العرب النازحين . ولم يستطع الاتراك بعد ذلك أن ينقلوا الى مصر عناصر كثيرة منهم غير الجيوش والحكام وهم قلائل بالنسبة لهجرات العرب السابقين ، وان كانت صفاتهم الجنسية تختلف اختلافا واضحا عن المصريين من حيث مقياس الرأس (المستدير) وشكل الأنف ولون البشرة وبنية الجسم على الجملة . لذلك فانه على الرغم من التباين فى التكوين الجنسى بين الأتراك وأشباههم ، وبين المصريين ، فان الأثر التركى بقى محصورا فى مناطق وطبقات خاصة من سكان مصر ، ولم يستطع أن يغير المعالم العامة لتكوين الشعب ، لاسيما فى البيئة الريفية .

وهكذا جاء العصر الحديث ومصر لم تغير طابعها القديم ، بل حافظت فى الجملة على أسس تكوينها الجنسى ، الذى وضعت قواعده الأولى فى عهد يرجع فى القليل الى عصر ماقبل الاسرات أو بداءة المعدن ، ثم استمرت تلك القواعد ثابتة أو متطورة تطورا بطيئا فى حدود مرسومة ؛ واستندت فى ذلك الى مقومات الوراثة العاملة ومؤثرات البيئة القائمة [1] ؛ فلم يعترها من التغيير الا ذلك التحول العام بطغيان بعض

(١) ربما كان من أظهر مؤثرات البيئة فى مصر استمرار لون البشرة لاسيما فى مصر العليا . وقد يكون ذلك راجعاً إلى الأحوال المناخية الخاصة التى جعلت المصريين يمتازون بشىء من السمرة بالنسبة إلى غيرهم من عناصر البحر المتوسط الذين يشبهونهم فى المظاهر الأخرى للتكوين الجنسى .

« الصفات الغالبة » على غيرها ، ومن ذلك ميل الرأس الى التوسط بدلا من ميله الى الطول ؛ وهى ظاهرة تعتبر محلية فى أساسها أكثر منها خارجية ؛ فمصر قد استطاعت بفضل عزلتها النسبية خلف حواجز الصحراء أن تهضم غزاتها وأن تحتفظ بشخصيتها الجنسية على مر العصور .

خلاصة عن سكان مصر ومميزاتهم الجنسية العامة :

من هذا العرض العام لسكان مصر وتطور تكوينهم الجنسى ، والعوامل التى كيفت ذلك التطور وأثرت فيه ، نستطيع أن نخرج بصورة عامة عن تكوين المصريين . وأول مايسترعى النظر أننا شعب اشتركت فى تكوينه عدة عناصر ، فاجتمعت له صفات جنسية منوعة . ولكن الشىء المهم أن العناصر المختلفة التى دخلت مصر فى أوائل تعميرها بالسكان كان أغلبها متقاربا من بعضه البعض فى تكوينه الجنسى ، ويمت بصلة قريبة أو بعيدة الى سلالة البحر المتوسط أو هو متأثر بها تأثرا ظاهرا . ولقد ألف من نسميهم الحاميين الأولين أساس المجتمع المصرى فى نهاية عصر ماقبل التاريخ وبداءة العصر التاريخى ؛ وهم نزحوا من شرق أفريقية الى وادى النيل بما فى ذلك مصر . ثم أضيفت اليهم عناصر ممن نسميهم الساميين ، أتوا على شكل غزوات متتالية من غرب آسيا ، وأثروا فى ثقافة مصر من جهة ، كما أضافوا اليها عنصرا أو عناصر من سلالة البحر المتوسط التى اختلطت فى الشرق الادنى ببعض عناصر أخرى من هضبة ايران والاناضول المجاورة من جهة أخرى . وفى بعض الاحيان كان عنصر الهضبة قويا وقريبا فى تكوينه من السلالة الارمينية ذات الصفات الظاهرة فى عرض الرأس وارتفاعه وتقوس الانف وارتفاع قنطرته . كما أن هذا العنصر الارمينى غذى فى عهود لاحقة بعناصر أخرى مستديرة الرأس لاسيما الاتراك .

على أن هذه الاضافات كلها مالبثت أن استوعبها عنصر البحر المتوسط الاصيل فى مصر ؛كما استوعب غيرها من المؤثرات التى أتت من شمال غرب مصر وشمالها ، وامتازت ببعض الفئات الشقراء نسبيا ؛ أو أتت من جنوب مصر ، وحملت اليها بعض العناصر السوداء . فالشيء الواضح اذن أن الغزوات التى وصلت مصر لم تستطع أن تطغى على سكانها الاصليين فتبدل مميزاتهم الجنسية تبديلا تاما أو واضحا ؛ وانما هى أضافت صفات قليلة ظهرت فى بعض المناطق بصورة جلية ، ولكنها مالبثت أن تلاشت أو لطفت فى مجموع السكان . ولذلك فان مصر قد جمعت بين أمرين قد يبدوان متناقضين أول الامر ، وهما اختلاط الدماء والمميزات الجنسية ، ثم تقارب تلك الصفات وتشابهها الى حد يصعب معه لمس الفوارق الجنسية بين مختلف السكان بصفة عامة ، اللهم الا فى حالة من لم يمض عليه فى مصر من الوقت مايكفى لصبغه بالصبغة العامة أو استيعابه فى بقية السكان . ولذلك فان من الممكن أن تقول عن المصريين فى جملتهم [1] انهم يمتازون بالرأس الذى يعتبر بين الطويل والمتوسط ، وان كان أميل الى التوسط ؛ وبالوجه البيضى أو الطويل ؛ وبلون البشرة الاسمر أو القمحى ، والذى قد يختلف فى بعض المناطق عنه فى الاخرى ، كماهى الحال فى الفرق بين سكان مديرية قنا واحدى مديريات الوجه البحرى مثلا ؛ ثم بلون العيون العسلى الداكن ، وبالشعر المتموج أو المجعد ؛ والأنف الذى يميل الى الاستعراض على

(١) رغم أن المصريين الحاليين لم يدرسوا بعد الدراسة الكافية ، فمن الممكن بصفة عامة الحصول على معلومات عامة مفيدة فى بعض المراجع مثل :

E. Chantre "Recherches anthropologiques dans l'Afrique Orientale—Egypte", Lyon 1904; J.I. Craig, "Anthropometry of Modern Egyptians", *Biometrika*, vol. VIII, 1911, pp. 66-78.

C.S. Myers, "Contributions to Egyptian Anthropology" *Journal of the (Royal) Anthropological Institute*, vol. 33, London 1933, pp. 82-89, vol. 35, 1905, pp. 80-91, vol. 36, 1906 pp. 237-271 and vol. 38, 1908 pp. 99-147. Also G. Elliot Smith „The People of Egypt" *The Cairo Scientific Journal*, vol. III, No. 30, 1909, pp. 51-63.

الجملة ولكنه يختلف اختلافا ظاهرا بين الافراد ؛ كما يمتازون بالقامة المعتدلة (فوق المتوسط قليلا) وان كانت هناك بعض الاختلافات المحلية . وكل هذه الصفات وغيرها تختلط فى السكان اختلاطا يصعب معه تطبيق نظرية نقاء الجنس من جهة ، كما يصعب تتبع أصول كل صفة من الصفات وردها الى مصدرها الأول من جهة أخرى . فالاختلاط فى مصر أصله قديم ؛ وقد لاحظناه حتى بين بعض سكان العصر الحجرى الحديث . ولكن من الواجب أن نستدرك أن هذا « الاختلاط فى الصفات الجنسية » ليس معناه ولا ينبغى أن يفهم منه « اختلاط فى التكوين الشعبى » . فالمصريون الحاليون ليسوا مؤلفين من « شعوب مختلطة » ؛ وانما هم شعب واحد اختلطت فيه الصفات الجنسية ، وتعددت مصادر الوراثة . وفرق كبير بين الحالتين . بل اننا نستطيع أن نذهب الى أبعد من ذلك فنقول ان اختلاط الصفات الجنسية فى شعب مصر كان على الدوام سرا هائلا من أسرار قوة هذا الشعب وحيويته ومقدرته على أن يحتفظ بشخصيته ، وأن يغالب الزمن ويبقى رغم أحداث التاريخ التى أتت على كثير من الامم القديمة والوسيطة . ولقد وجد شعب مصر من تنوع صفاته وملكاته ما أعطاه مقدرة خاصة على أن يلائم بين نفسه وبين اختلاف الايام والظروف والاحداث . ولو أنه لاشك أيضا أن قوة البيئة المصرية ذاتها فى الوادى وما يحيط به من صحارى جافة قد ساعدت من جهتها كذلك على أن يحتفظ ذلك الشعب بكيانه وطابعه الجنسى الخاص على مر العصور[1] .

(١) ليس يعيب المصريين فى شىء أن تكون قد اختلطت فيهم دماء الغزاة . فهم قد أفادوا من ذلك تنوع الصفات والملكات بين الأفراد وفئات المجتمع، وهم قد استطاعوا رغم الاختلاط أن يبقوا على الدوام أمة واحدة . ومن المعروف أن أغلب أمم التاريخ الكبرى فى العهود القديمة كاليونان والعهود الوسيطة كالعرب والعهد الحديث كبريطانيا إنما استطاعت أن تحقق ماقامت به من دور خاص فى التاريخ بفضل تنوع تكوينها الجنسى . وأمامنا الآن تجربة هائلة فى الولايات المتحدة حيث تأتلف أمة واحدة من سلالات غاية فى التشعب . وكذلك الحال فى الاتحاد السوفيتى .

ولكن ظاهرة الاختلاط الجنسى فى الصفات الجسمية تبرز بصورة أكثر وضوحا اذا ما نحن قارنا بين مختلف أجزاء مصر ، وراعينا الظروف الجغرافية والبشرية والتاريخية العامة لكل منها • فالدلتا غير الصعيد ، وشرق الدلتا غير غربها ، والجهات الساحلية غير المناطق الداخلية ، ومنطقة كالفيوم غير الوادى ، وذلك كله من حيث التعرض لمختلف الغزوات التى قد تأتى بالبحر أو بالبر ، ومن الشرق أو الغرب أو من الجنوب • فالاختلافات المحلية أمر مسلم به ، لأنها مترتبة على ظروف البيئة الطبيعية المحلية من جهة ، وعلى عوامل الاتصال بالعالم الخارجى من جهة أخرى •

على أننا اذ نلاحظ الاختلاف المحلى فى التكوين الجنسى ينبغى أن نصحح اعتقادا شائعا ، وهو أن فئة خاصة من المصريين قد تكون أقرب الى تمثيل « السلالة المصرية » من غيرها • ففى كثير من الكتب ، وحتى العلمية منها ، يشار مثلا الى الاقباط على أنهم أصدق تمثيلا لسكان مصر الاصليين من المسلمين الذين تأثروا بالعنصر العربى • ومثل هذا القول يحتاج كما ذكرنا الى أن يصحح من نواح عدة • فأولا ليست هناك « سلالة مصرية » بالمعنى العلمى الدقيق ، وانما سكان مصر يمتازون فى جملتهم بتوافر مجموعة من الصفات الجسمية أو الجنسية تشيع فى جملتهم وتعطيهم طابعهم الجنسى العام • ومثل هذا القول يتفق تماما والاتجاه العلمى الحديث فى دراسة السلالات ودراسة التكوين الجنسى للأمم والشعوب • ثم ان الطابع الجنسى العام للمصريين قد وجد واتخذ صورته المميزة قبل أن يكون هناك أقباط أو مسلمون • بل هو كما رأينا يرجع فى القليل الى أواخر عصر ماقبل التاريخ • ولم تفعل الاضافات اللاحقة والجديدة أكثر من أنها عدلت بعض الصفات القديمة أو زادتها تنوعا ، ولكنها على كل حال لم تقلبها رأسا على عقب • وليس فى تاريخ مصر الطويل مايدل من قريب أو بعيد على حلول سلالة محل

أخرى ؛ ولا على أن شعبا نازحا طرد شعبا أصيلا • بل ان مصر من هذه الناحية تختلف اختلافا ظاهرا عن بلد كالعراق مثلا ، أحاطت به السهوب والمراعى من الجانبين ، فاكتسحته الغزوات اكتساحا من الشرق أو من الغرب أو من الشمال بين حين وحين ، وغيرت معالم تكوين أهله الجنسى تغييرا واضحا فى بعض الجهات ، كما طمست كثيرا من معالم حضارته من وقت لآخر ، فتداولت عليه ، أو على أجزاء منه على الأصح ، « أمم » من السومريين والعقاديين (الآكاديين) والبابليين والآشوريين والفرس والعرب ؛ ولكل منهم طابعه الخاص ليس فى المدنية وحدها وانما كذلك فى التكوين الجنسى الى حد قريب أو بعيد • أما مصر فقد احتفظت بطابعها الذى لم يتحول الا فى نطاق محدود • وحتى عندما جاء الاسلام أثر العرب بعض التأثير فى مصر والمصريين لاسيما فى المناطق القريبة من بلادهم فى شرق الدلتا ؛ ولكن العرب ولا سيما الشماليين منهم ، كانوا كما ذكرنا قريبين جدا فى تكوينهم الجنسى من سكان مصر ، لأنهم جميعا متأثرون بسلالة البحر المتوسط أو منحدرون فى الأصل منها • كما ان الغالبية الساحقة من المسلمين فى مصر لم يكونوا غزاة وانما هم فى الأصل أقباط تحولوا الى الاسلام • ومن الطريف فى هذا المقام أن نذكر أن هذا التحول لم يحدث فى مصر فجأة ، وانما جاء بالتدريج ؛ واحتفظت الكنيسة القبطية بقوتها وأتباعها الكثيرين الى أن لحقها الركود ونخرتها الخلافات الفردية والطائفية ، فضعفت فى القرن الثالث عشر ضعفا ظاهرا كان من نتيجته تحول أفواج كثيرة من الاقباط الى الاسلام [1] • وهكذا يمكن أن يقال ان كثيرا من العناصر المسلمة بين المصريين كانوا أقباطا الى عهد قريب جدا ، ولم يؤثر دخولهم فى الاسلام فى تكوينهم الجنسى [2] •

---

(١) انظر :

T. W. Arnold, "The Preaching of Islam" 1st ed. London 1896, pp. 87-93

(٢) ومع ذلك فهناك فئات قليلة من المسلمين لاسيما فى المدن انحدروا من جماعات وافدة =

المصريون اذن أمة تنتمى فى تكوينها الجنسى الأصلى الى سلالة البحر المتوسط • تلك التى تمتاز بالبشرة القمحية أو البيضاء والشعر المموج أو المجعد والرأس الطويل أو المتوسط والوجه البيضى والأنف المعتدل والعيون العسلية أو السوداء والقامة المتوسطة • ولكن هذه الصفات لاتتمثل فى المصريين نقية لأنهم جمعوا اليها مؤثرات أخرى اكتسبوها بفعل البيئة ثم على الخصوص بالاختلاط مع غيرهم من الوافدين والعابرين • ولكن الاختلاط بين سكان مصر يمتاز بأنه قديم وبأنه بلغ حد الامتزاج والتداخل التام بين الصفات الجنسية الأصلية والوافدة • ولقد أعطى ذلك أهل مصر قوة ، وساعدهم على « هضم » من اختلط بهم وعلى « تمثيل » العناصر الدخيلة تمثيلا لم يلبث معه أن انمحى الأثر الوافد ، أو تلاشى فى الصفة الاصلية بعد أن عدلها بعض التعديل • وكلما مضى الزمن على المصريين ازداد تداخل الصفات الجنسية بينهم ، وتضاعفت — فيما يبدو — مقدرتهم على استيعاب العناصر الغريبة وتمثيلها •

ملاحظات ختامية ومقترحات بشأن الدراسة الانثروبولوجية لسكان مصر

ذلك مجمل ما يمكن أن يقال عن المصريين وتكوينهم الجنسى فى الوقت الحاضر • وهو كما ذكرنا فى أول هذا البحث لايمكن أن يعطينا غير صورة عامة مجملة عن هذا التكوين • فمصر لم تدرس من الناحية الانثروبولوجية دراسة علمية مستوفاة • وهى حتى بعد أن تتم دراستها

= من غير سلالة البحر المتوسط كالأتراك . وهؤلاء لم يتح الوقت بعد لاندماجهم فى السكان الأصليين اندماجاً كافيا « من الناحية الجنسية » . وربما كان هذا مرد الرأى القائل بأن المسلمين أقل تمثيلا للمصريين الأصليين من الأقباط . ولكن مثل هذه الحالات لاتتعدى مناطق محدودة ولا تشمل الريف المصرى فى جملته .

لايمكن أن يفهم تكوين أهلها فهما صادقا الا اذا قارنا نتائج الدراسة في مصر بما تنتهى اليه دراسة غيرها من الاقطار المجاورة • ولذلك فلابد لنا أن ننتظر طويلا قبل أن نستطيع أن نصور تكوين المصريين واتصالهم فى السلالة بغيرهم من أهل الأقطار المجاورة تصويرا صادقا دقيقا • ومع ذلك فقد يكون من الخير فى هذه المرحلة أن نضع أمام الباحثين بضع ملاحظات ومقترحات تفيد فى رسم الخطة لهذه الدراسة العلمية ، التى نرجو ألا يطول الوقت قبل أن تجد طريقها الى النور •

١ — وأول ماينبغى أن يلتفت اليه فى دراسة سكان مصر دراسة جنسية أننا لانستطيع فى هذه الدراسة أن نفصل بين مختلف نواحى البحث الانثروبولوجى الطبيعى الذى يدرس الانسان وصفاته ؛ والجغرافى الذى يدرس البيئة ومظاهرها ومؤثراتها ؛ والأثرى الذى يبحث أصل الحضارات واتصالاتها مما قد يلقى ضوءا على أصل السلالات واختلاطها ؛ ثم التاريخى العام وهو يكمل الجانب الاثرى فى الاستدلال على اتصالات مصر والمصريين فى العهود الماضية • وليس يغنى فى مصر أن نكتفى بدراسة السكان الحاليين وتكوينهم من حيث صفات الجسم المختلفة ، فذلك يخرج بنا بصورة قد تكون صحيحة فى حد ذاتها ، ولكنها مع ذلك لن تكون مفهومة لنا فهما واضحا • وانما تفسر الظاهرات الجنسية وتنسب تعقيداتها اما الى أثر البيئة المحلية أو الموقع فى الاتصال بالعالم الخارجى ومزج عناصر السكان بعضهم ببعض أو عرقلة ذلك الاتصال والمزج فى بعض الحالات ؛ واما الى مؤثرات وعناصر قديمة جدا بل ترجع الى عصر ماقبل التاريخ ، وهو الذى لايكشف عنه الا دراسة الآثار الأولى للانسان وتحديد هجراته واتصالاته فى ذلك العهد ، وكذلك دراسة العظام الباقية مع الآلات الحجرية التى خلفها الانسان • ومثل هذا العصر وان بدا سحيقا فان دراسته فى مصر واجبة بصفة خاصة ، بل لازمة لفهم حياتنا فى الوقت الحاضر • وقد رأينا أن سكان

مصر أخذوا طابعهم الأساسى من الناحية الجنسية قبل أن يبزغ فجر التاريخ ، وان العناصر التى دخلت مصر حتى فى ذلك الوقت البعيد لم تخرج منها ، وانما بقيت لتورث صفاتها للأجيال اللاحقة • وكذلك الحال فى دراسة العصر التاريخى وتتبع الهجرات أو الغزوات التاريخية التىأتت مصر ، فذلك كله مما يلزم فى تفهم تكويننا الجنسى العام فى الوقت الحاضر • ولعل هذا كله أن يكون سببا فى صعوبة الدراسة وتعقيدها وتشعبها ان نحن أردنا أن نعطى صورة صحيحة مفهومة عن تكوين سكان مصر الجنسى •

٢ — ان الطريقة المثلى أو المدخل الصحيح فى رأينا لدراسة سكان مصر وتكوينهم الجنسى انما تكون بتقسيم وادى النيل الأدنى والجهات الملحقة به الى مناطق أو « أوطان صغيرة » يدرس تكوين سكان كل منها دراسة اقليمية تفصيلية ، ويكون تقسيم تلك الأوطان الصغيرة وتحديدها على أساس جغرافى طبيعى بقدر الامكان ، بدلا من الاكتفاء بالتقسيم الادارى المعروف ، بل بصرف النظر عن هذا التقسيم الادارى فى بعض الأحيان ، ثم تأتلف من مجموع الدراسات الاقليمية صورة عامة عن سكان مصر• ذلك أن البحث الانثروبولوجى فى مصر سيهدف بطبيعته الى ابراز نواحى الاختلاط والتزاوج فى الصفات التى يمتاز بها أهل وادى النيل الأدنى ، ومن الخير أن نبدأ بدراسة المناطق كل واحدة على حدة ، فنعين مميزات سكانها ، ثم نجرى المقارنة والربط بين مختلف المناطق ، فنخرج بصورة اجمالية واضحة ، تمتاز بأن عمومياتها لاتطمس معالم التنوع الاقليمى فى السكان ، ولا تطغى على أثر موقع كل منطقة وظروفها الجغرافية والتاريخية • أما اذا بدأنا بدراسة القطر كله بأخذ قياسات لأفراد من مختلف جهاته وعمل المتوسطات فيها ، فان النتيجة تكون أن تأتلف لدينا صورة عامة لاتفيد كثيرا فى استجلاء التفاصيل الاقليمية ، وقد نخرج «بمتوسطات» نظرية للتكوين الجنسى «للمصرى»

لاتنطبق على الحالة فى أى اقليم من الأقاليم المحلية فى مصر • وبذلك تكون الصورة التى نرسمها للمصرى صورة « حسابية » أكثر منها « واقعيـــة » • ومن المسلم به أننا نعتمد على مثل هذه المتوسطات فى دراســـة سكان « الاقاليم » أو « الاوطان الصغرى » ، ولكن احتمال الخطأ واضاعة المعالم التفصيلية والمحلية يكون فىهذه الحالة أقل مما يحدث عند ما نعتمد على المتوسطات العامة التى تشمل سكان القطر جميعا •

٣ — الى جانب هذه الدراســـة الجنسية الاقليمية يصح أن تكون هناك دراسة جنسية تاريخية لمصر ؛ بمعنى أن تاريخنا الجنسى يمكن أن يقسم الى « مراحل » تدرس كل منها على حدة ، ويعتمد فيها على مجموعة من الأدلة الباليونتولوجية الخاصة بعظام الانسان وهياكله فى العهود القديمة من جهة ، والأدلة الأثرية والتاريخية بل والجغرافية من جهة أخرى • ومع أنه ليس من المنتظر أن تبرز فروق كبيرة فى تكويننا الجنسى بين عصر وعصر ، فان هذه الدراسة التاريخية لن تخلو من طرافة وفائدة ، لأنها ستعطينا صورة منعكسة من تطور السلالة وامتزاج الصفات فى مصر بحكم العوامل المحلية من جهة ، والاتصال بالعالم الخارجى وتلقى الموجات الجنسية من جهة أخرى •

٤ — فاذا ما عرضنا لطريقة الدراسة الانثروبولوجية ذاتها وجدنا أن خير طريق نستطيع أن نسلكه هو أن ندرس الصفات الجسمية كلا على حدة ، ثم نوزع تلك الصفات توزيعا جغرافيا • فنجمع مثلا البيـــانات عن مقياس الرأس أو شكل الشعر أو طول القـــامة ؛ ثم نوزع تلك البيانات على خرائط ؛ ثم نقارن بين الخرائط المختلفة حتى نخرج بنتيجة عن أى الصفات يتمشى فى توزيعه الجغرافى مع غيره ، وأيها يمتاز بتوزيعه الجغرافى الذى لا يتمشى مع توزيع بقية الصفات• وربما ننتهى الى مااتجه الانثروبولوجيون نحوه فى السنوات الأخيرة من دراسة « مجموعات من الصفات الجنسية » (أو مايسمونه Groups of Racial Characteristics) التى

يتمشى بعضها مع بعض ، وتعطى السكان صفتهم العامة والغالبة • وهكذا نتحاشى الحديث عن الجنس والسلالة بمعناهما الضيق القديم (راجع أول هذا البحث) • ولاشك أن مثل هذه الدراسة فى مصر ستكون مثالا طيبا للدراسة الانثروبولوجية ومنهاجها الجديد ، لأن مصر كما رأينا بلد تمتزج فيه الصفات وتتزاوج الى حد بعيد لن تزيده الدراسة الا جلاء ووضوحا •

٥ — وقد تكون مصر فوق ذلك مجالا طيبا لأن تمارس فيه مختلف الطرائق فى الدراسة الانثروبولوجية ، ولأن تقارن نتائجها بعضها ببعض• ويمكن أن نشير هنا الى ناحية جديدة نسبيا من البحث الانثروبولوجى ، وهى تلك التى تعتمد على تحليل الدم وتقسيمه الى مجموعاته الأربع المعروفة [١] والتى يرى فيها بعض الباحثين أساسا صالحا لأن تقسم السلالات البشرية الى مجموعات كبرى على الأقل، ولأن نكشف عن تيارات الهجرة القديمة ، لأن كل تيار يترك أثره فى دماء أبنائه على طول طريق الهجرة مهما طال عليها الزمن • وقد جرت أبحاث مختلفة عن سكان مصر ومجموعاتهم الدموية [٢] ؛ ولكن النتائج لاتزال غير واضحة الى الآن • وهذه الدراسة لا تزال فى بداءتها ؛ ولا بد فى النهاية لتحقيق الفائدة المرجوة منها أن نقارن نتائج خرائط التوزيع القائمة على أساس مجموعات الدم بنتائج خرائط التوزيع التى تبنى أساس

---

(١) وهي التى يرمز إليها بمجموعات ا ، ب ، ا — ب ، و A, B, A-B, and O)

(٢) انظر :

A.T. Shousha and M. Ali "The Blood Groups of the Egyptians and their M. and N. Factors", *Journ. of the Egyptian Pub. Health Ass.*, 9th year 1934 (Oct.);

D. Matta, "Some Observations on the Distribution of the Blood Groups in certain parts of Egypt "*Journ. Egyptian Medical Association*, vol. XXIII. No 1 Jan. 1940; W.C. and L.G. Boyd, "New Data on Blood Groups and other Inherited Factors in Europe and Egypt", "*Amer. Journ. Phys. Anthrop.*, vol. 23, pp. 49-70

الصفات الجسمية المعروفة • وعندذاك تصبح دراسة مجموعات الدم مكملة لدراسة الصفات والمميزات الجسمية [١] •

٦ — لمصر موقعها الجغرافى الخاص بين قارات العالم القديم • وهى رغم احاطة الصحراء بها ، ورغم جفاف تلك الصحراء ، فانها كانت على اتصال دائم بما جاورها من البلدان ، وغاية ما هنـاك أن الصحراء « نظمت » اتصال مصر بالخارج ؛ فحددت عدد الغزاة وعدد الغزوات ، كما سمحت للعناصر المخاطرة دون غيرها أن تصل الى أرض الوادى بعد رحلتها الشـاقة عبر الفيـافى القاحلة ؛ فكانت بمثـابة المصفاة تحتجز العناصر الضعيفة فلا تصل أرض النيل • وقد كان لذلك أثره فى اتصال مصر بالخارج ؛ وأصبح ذلك الاتصال منظما محدودا ، وان لم ينعدم فى وقت من الأوقات • ولذلك فان من الخير فى دراسة سكان مصر وتاريخ تكوينهم الجنسى ألا نغفل هذه الصفة المنظمة التى اتخذها اتصال مصر بالخارج ؛ وألا ننسى التنظيم الطبيعى للصلات عندما نقارن بين سكان مصر ومن يجاورهم من العناصر •

٧ — ولعل آخر ما ينبغى أن نشير اليه أن هذه الدراسة الجنسية فى مصر لا يمكن أن تخلو من طرافة ليس فقط لطالب الانثروبولوجيا أو الجغرافيا الجنسية ، وانما كذلك لطالب التاريخ البشرى ، ولأولئك الذين يعنون بتعرف شىء عن نصيب مصر فى تاريخ المدنية العام • فالحياة والمدنية فى مصر لم تكونا كما ذكرنا فى صدر هذا البحث من نتاج البيئة وحدها ، وانما جاءتا مترتبتين على تفاعل عوامل البيئة وجهود الانسان • ومصر التاريخية بشكلها المعروف انما كانت هبة من هبات النيل وثمرة من ثمرات الكفاح البشرى فى وقت واحد • ومهما قيل عن أسباب

---

(١) انظر مثالا لذلك فى :
A.M. Ammar "The People of Sharqiya "*loc. cit.*, pp. 176-209.

نشأة المدنية وازدهارها واستمرارها فى مصر فليس من شك فى أن التكوين الجنسى للمصريين كان له أثره الأول وفعله الدائم فى قصة الحياة والمدنية على ضفاف النيل .

سليمان حزين

ثبت ببعض المراجع :

أولا : مراجع عامة

Coon, C.S. "The Races of Europe", New York 1939 (section on "Civilized Men in Egypt", pp. 91-98).

Kappers, A.G.U., "An Introduction to the Anthropology of the Near East in Ancient and Recent Times" Amsterdam 1934.

MacMichael, H.A., "A History of the Arabs of the Sudan, and some account of the people who preceded them and of the Tribes inhabiting Darfur" 2 vols. Cambridge 1922.

Seligman, C.G. "The Physical Characters of the Arabs" *Journ. of the Roy.Anthropological Institute*, vol. XLVII, 1917, pp. 214-237.

Seligman, C.G., "Races of Africa" Home University Library, London 1930.

Sergi, G., "The Mediterranean Race: A Study of the Origin of European Peoples", London 1901.

Smith, G. Elliot, "The Ancient Egyptians and the Origin of Civilization" new edition 1923.

Worrel, W.H. "A Study of Races in the Ancient Near East", Cambridge 1927.

ثانيا : مراجع خاصة واقليمية

Ammar, A.M. "The People of Sharqiya: their Racial History, Serology, Physical Characters, Demography and Conditions of Life," *Pub. Soc. Roy. de Geog. d'Egypte*, (with vol. of plates), Cairo 1944.

Anthropology of Egypt in the Light of Recent Observations, being a review in *American Anthropologist*, vol. 12, 1910, pp. 75-76.

Anthropometric Investigations among the Native Troops of the Egyptian Army, being Report of the Committee, *British Ass. for the Advancement of Science*, Belfast 1902 pp. 350-351; South Africa 1905, pp. 207-208., York 1906, pp. 347-348.

Boyd, W.C. and L.G. "New Data on Blood Groups and other Inherited Factors in Europe and Egypt" *American Journ. Phys. Anthrop.*, vol. 23, pp. 49-70.

Chantre, E. "Recherches Anthropologiques dans l'Afrique Orientale —Egypte", Lyon 1904.

Chantre, E. "Indice Céphalique des Egyptiens Actuels" *l'Anthropologie*, t. XII, 1, pp. 759 *et seq.*

Craig, J.I. "An Anthropometrical Survey of Egypt" *The Cairo Sc. Journal*, vol. V, July 1911, No. 58, pp. 165-180.

Craig, J.I. "Anthropometry of Modern Egyptians" *Biometrika*, vol. VIII, 1911 (1912) pp. 66-78.

Derry, D.E. "Preliminary Note on Human Remains from a Neolithic Settlement at Merinde-Benisalame" *Anzeiger der philos. hist. Klasse der Ak. der Wissenschaften in Wien*, Jahrgang 1930, Nr V-XIII pp. 53-60.

Giuffrida-Ruggeri, V., "Les crânes égyptiens et arabo-égyptiens de l'Université de Naples" *l'Anthropologie.* t. 22, 1911, pp. 214-216.

Giuffrida-Ruggeri, V., "Were the pre-Dynastic Egyptians, Libyans or Ethiopians ?" *Man*, 1915, No. 32.

Giuffrida-Ruggeri, V., "A few notes on the Neolithic Egyptians and Ethiopians", *Man*, 1916, No. 55.

Hamy, E.T. "Aperçu sur les races humaines de la basse vallée du Nil" *Bull. Soc. d'Anthr.*, Paris 3e série, t. 9, 1886, pp. 718-743.

Hrdlicka, A., "Notes sur la variation morphologique des Egyptiens depuis les préhistoriques ou prédynastiques" *Bull. et Mém. Soc. Anthrop.*, Paris 5e série, t. 10, 1909, pp. 143-144.

Hrdlicka, A., "The natives of Kharga Oasis, Egypt", *Smithsonian Miscellaneous Collections*, vol. 59, No. 1, Washington 1912.

Matson, G.A., "A Procedure for determining Distribution of Blood-Groups in Mummies" *Proceedings Soc. for Experimental Biology and Medicine*, vol. 31, 1934, pp. 964 sqq.

Matta, D., "Some Observations on the Distribution of the Blood-Groups in certain Parts of Egypt" *Journ. Egyptian Medical Ass.* Jan. 1940, vol. XXIII, No. 1.

Morant, G.M., "A Study of Egyptian Craniology from Prehistoric to Roman Times" *Biometrika*, vol. XVII, 1925, pp. 1-52.

Myers, C.S., "Contributions to Egyptian Anthropology, I." *Journ. (Roy.) Anthrop. Institute*, vol. 33, 1903 pp. 82-89.
"Contributions etc. II: The Comparative Anthropometry of the most Ancient and Modern Inhabitants" *Ibid.*, vol. 35, 1905, pp. 80-91.

"Contributions etc. III: The Anthropometry of the Modern Mohammedans" *Ibid.*, vol. 36, 1906, pp. 237-271.

"Contributions etc. IV: General Conclusions", *Ibid.*, vol. 38, 1908, pp. 99-147.

Shousha, A.T., "On the Biochemical Race-Index of the Egyptians" *Egyptian Medic. Journ.* vol. XI No. 1, 4.

Shousha, A.T. and Ali, M., "The Blood-Groups of the Egyptians and their M. and N. Factors" *Journ. of the Egyptian Public Health Ass.*, 9th year, 1934, Oct.

Smith, G. Elliot, "Anthropological Work in Egypt" *Man* 1908, pp. 156 sqq.

Smith, G. Elliot, "The People of Egypt", *The Cairo Scientific Journal*, vol. III No. 30, March 1909, pp. 51-63.

Smith, G. Elliot, "The Ancient Inhabitants of Egypt and the Sudan" *Rep. Brit. Ass. for the Advancement of Science*, Australia 1914 p. 534.

Stoessiger, B.N., "A Study of the Badarian Crania recently excavated by the Brit. School of Archaeology in Egypt", *Biometrika*, vol. XIX, 1927, pp. 110-150.

سليمان حزين
